تحت الرعاية السامية لمعالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي

SOUS LE HAUT PATRONAGE DE MONSIEUR, LE MINISTRE DE L' ENSEIGNEMENT SUPERIEUR ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

الجـامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية - أدرار

L'UNIVERSITE COLONEl AHMED DRAYA-ADRAR

تنظـــــــم

ORGANISE

الملتقى الدولي الحادي عشر

Onziéme Colloque International

التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة

Le Soufisme en Islam et Les défis contemporains

أيام: ٩-١٠-١١ نوفمبر ٢٠٠٨

المحور الثالث:

العلاقة بين أهل التصوف وغيرهم

دور التصوف في ظهور حركات الإصلاح والتجديد في الإسلام

د.صالح نعمان

جامعة قسنطينة

الملخص:

إن الدارس لتاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام والمتتبع لحوادثه وشخصياته لا يكاد يعرف عهدا قصيرا ساد الظلام فيه على العالم الإسلامي، وخبت مصابيح الإصلاح وخفتت أصوات الحق ومات الضمير الإسلامي وتبلد الشعور، وأضرب الفكر الإسلامي عن العمل.

ذلك أن الله تعالى يقيض لهذه الأمة في كل قرن من يجيد لها دينها، فظهر مجددون ومصلحون حافظوا على الإسلام جدته وشبابه وحيويته وقضوا على كثير من الفتن والبدع والمؤامرات والتحريفات، فكان تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام متصلا.

والسر في ذلك حيوية الدين الإسلامي وقوة توليده وإنتاجه للعارفين وأصحاب اليقين والمصلحين والمجددين، والسر في حيوية هذا الدين بناءه الروحي لشخصية المسلم التي يجعلها أساس الحياة الإنسانية كلها ومصدر قوته الثائرة والمصلحة المتمثلة في تزكية النفس، حيث لا نكاد نجد شخصية إصلاحية مجددة في التاريخ الإسلامي إلا ونجد أساس بناء حركته وفكره البناء الروحي الذي اختصت مدرسة التصوف بالاعتناء به وتربية الأجيال عليه.

الدكتور صالح نعمان

Résumé:

LE RÔLE DU SOUFISME DANS L'ÉMERGENCE DE MOUVEMENTS DE RÉFORME ET DE RENOUVELLEMENT EN ISLAM.

Les étudiants de l'histoire de la réforme et le renouvellement dans l'islam, et qui suivent ses événements et ses personnages ne Save guère y avait une brève période d'obscurité dans le monde islamique, ou l'éteinte des lampes de la réforme et caché la voix du vérité et la mort de conscience islamique et un sentiment d'indifférence, ou la renonce de la pensée islamique au travaille.

ceci parce que Dieu a met dans cette nation ce qui Renouvelle Chaque siècles sa religion, est réapparu des Réformateurs et des Rénovateurs qui ont conserver les intérêts de l'islam, maintenu sa nouveauté et sa jeunesse et sa vitalité et réduit à néant beaucoup de séditions et des engouements passagers et des complots et des distorsions, comme si l'histoire de renouvellement et de réforme dans l'Islam est continue.

Le secret de tous ceci est la vitalité de la religion islamique, et sa puissance productive des connaisseur et propriétaires de certitude et les réformateurs et les innovateurs, et le secret de la vitalité de cette religion sa construction spirituelle de la personnalité musulmane qui est la base de toute la vie humaine et la source de sa puissance rebelles et réformatrice qui est la purification de l'âme, où on trouve un

personnage de renouvellement- dans l'histoire islamique- on trouve cette construction et éducation spirituelle la base de son mouvement et de sa pensé ce qui est la spécialité de l'école de soufisme qui a construit et éduquer des générations.

أولا تمهيد:

إن الدارس لتاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام والمتتبع لحوادثه وشخصياته لا يكاد يعرف عهدا قصيرا ساد الظلام فيه على العالم الإسلامي، وخبت مصابيح الإصلاح وخفتت أصوات الحق ومات الضمير الإسلامي وتبلد الشعور، وأضرب الفكر الإسلامي عن العمل.

ذلك أن الله تعالى يقيض لهذه الأمة في كل قرن من يجيد لها دينها، فظهر مجددون ومصلحون حافظوا على الإسلام جدته وشبابه وحيويته وقضوا على كثير من الفتن والبدع والمؤامرات والتحريفات، فكان تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام متصلا.

والسر في ذلك حيوية الدين الإسلامي وقوة توليده وإنتاجه للعارفين وأصحاب اليقين والمصلحين والمجددين، والسر في حيوية هذا الدين بناءه الروحي لشخصية المسلم التي يجعلها أساس الحياة الإنسانية كلها ومصدر قوته الثائرة والمصلحة المتمثلة في تزكية النفس، حيث لا نكاد نجد شخصية إصلاحية مجددة في التاريخ الإسلامي إلا ونجد أساس بناء حركته وفكره البناء الروحي الذي اختصت مدرسة التصوف بالاعتناء به وتربية الأجيال عليه.

و لما لابست كثير من الطرق الصوفية أخطاء فكرية وسلوكية أضرت بها وأبعدتها عن هدي الإسلام كان منهجنا في هذا البحث التعامل مع الطرق الصوفية القديمة والحاضرة بموضوعية وتجرد فنكشف عن مشاركة بعضها في خدمة الإسلام من حيث قيامها بتأطير الناس دينيا ومن حيث قيامها بحماية وجود الإسلام وبمشاركتها في حركة الجهاد ضد كل أشكال الغزو.

كما نكشف على رجالها الربانيين عظماء الإسلام المصلحين المجددين، قديما وحديثا وحاضرا، كابن تيمية الشامي ومحمد بن السنوسي المجاهدي الحسني الإدريسي المغاربي وحسن البنا المصري، ممثلين الطرق لقادرية والسنوسية والشاذلية في تطورها.

ذلك أن عظماء أمتنا الذين انفعل الزمان لسِيَرِهم، يتميزون بأنهم جمعوا من معين دين الإسلام أمورًا ثلاثة:

العلم الواسع القابل للتطبيق العملي.

والدعوة المتدفقة بحيويتها وحركتها.

والتصوف المحرق الذي ينفخ الروح في العلم والدعوة.

ونماذجنا من أولئك العظماء، الذين جمعوا تلك المضمونات، ومزجوها في وعاءٍ واحدٍ، حتى إنه يكادُ غير المستبصر لا يميز بين تلك المضمونات الثلاثة في حياتهم ومؤلفاتهم.

ثانيا: الدور العملي للتصوف والصوفية

(أو أثر التزكية (التربية الروحية) في الدعوة إلى الإصلاح):

فلما أغرق الناس في ماديات الحياة وسيطرت الرفاهية عليهم دون توجيه لها، انطلقت صيحات الزهاد والمصلحين طلبا لتوازن في الحياة، فجاءت دعوتهم إلى الزهد وتقليلهم من الاهتمام بالدنيا في موضعها اللائق وأوجدت جماعة من الناس يتبنون هذا الاتجاه ويجدون جذوره في حياة الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وصحابته الأطهار (رضي الله عنهم) غير تاركين واجباتهم المنوطة بهم في مجال إصلاح المجتمع بالدعوة على الجهاد الأكبر والأصغر ونشر الدين الإسلامي.

و هؤلاء هم الصوفية الذين خلصوا أنفسهم لله تعالى وفهموا دورهم في هذا الكون الذي يبذلون الروح في سبيل الله حين يدعو داعي الجهاد وتقتضيه حراسة الدعوة الإسلامية.

و أثر الطرق الصوفية في نشر الإسلام في بقاع كثيرة في العالم الإسلامي حقيقة تاريخية لا يختلف فيها اثنان، إلا بعضها الذي انحرف وتخلف عن الركب لظروف عدة، حيث يرتبط انتشار الإسلام في إفريقيا السوداء جنوب الصحراء والهند بكثير من الطرق والزوايا وشيوخها بما يبذلون من جهاد في هذا الصدد، إذ لم ينتشر الإسلام في كثير من هذه المناطق بواسطة الحروب، ذلك لأن التوافق الاجتماعي بين الكافرين والمسلمين لا يتم إلا بواسطة أولئك الذين يعطون ولا يطلبون ويقرضون ولا يأملون في شيء[1].

كما لا ينكر أحد الدور الذي أدته الزوايا السنوسية في الجهاد والأعمال الحربية التيكان لها أثرها في تونس وليبيا والجزائر والزوايا القادرية والرحمانية وغيرها ودورها في مقاومة الاحتلال الغربي بالجزائر احتضان ثورة التحرير.

وحين تمزقت الشخصية المسلمة ووجدت تيارات فصلت الإنسان المسلم عن حقيقة تكامله وانفصل العمل عن النقل (النص) والحقيقة على الشريعة، ومات الوجدان الذي كان يرهقه أن يرى المنكر ولا يغيره، كما كان الأمر مع السلف الصالح ومن تبعهم، فحين حدث هذا وجد في مجتمع المسلمين علماء مصلحون حققوا التوازن حين دعوا إلى الزهد واعتزال المظالم، كما أسهموا بجهد طيب في تغيير المنكر الذي كان واقعا آنذاك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

كان هذا في صورة علماء لهم مجالس وحلقات في القرنين 3 و4الهجريين كما كان في القرن 6 الهجري حيث تكونت ما يسمى بالطرق الصوفية، فولدت لنا عبر التاريخ الإسلامي وإلى يومنا هذا علماء مصلحين ومجددين انتفضوا وأبى وعيهم الانسياق في تيار بدعة الترهب والاختفاء عن الناس فوقفوا ينادون الأمة ويدلانها على الأمراض التي تتهددها[2].

---

[1]– عبد الرحمان يدوي: تاريخ التصوف، ص25 وانظر أحمد شلبي: موسوعة التلريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج6، ص209.

[2]– أحمد محمد الراشد: المنطلق، ص 113، بيروت؟؟؟ الرسالة.

و لما كان رصد كل حركات الإصلاح والتجديد مع بيان بالمقارنة أثر التربية الروحية في شخصية ودعوة الداعية، غير ممكن في مثل هذا المقال، حسبنا أن نشير إلى بعض الأمثلة ممن لا أثر فيهم جو الزهد وسلوك الطريق وتربيته، فأضافوا بذلك إلى دعواتهم ونصوصها بعدا روحيا عميقا مكنهم من الوصول إلى المدعوين والمطالبين بتغير أنفسهم وعصرهم، رجوعا إلى كتاب الله وسنة رسوله وسلوك السلف الصالح.

ثالثا: رجال الإصلاح الربانيون

1-شيخ الإسلام عبد الحليم أحمد بن تيمية

بطل الإصلاح الديني (661هـ)

عرف كعالم متكلم وفقيه جدلي، محدث كبير والكثير يعرف عنه أنه محدث جاف وعلم متبحر في العلوم الظاهرة.

أما ما ذكره الحافظ ابن القيم الجوزية في مدارج السالكين من أحواله وأقواله بمناسبات شتى وكذلك ما ذكره العلامة الذهبي وأمثاله في ترجمته من أخلاقه وأذواقه، وعاداته وشمائله، فيدل دلالة واضحة على أن شيخ الإسلام ابن تيمية يستحق بكل جدارة أن يعد من العارفين ورجال الله في هذه الأمة، وقد شهد على ذلك مواقفه وكتبه وحياته كلها.

و الأحوال التي عاش فيها شيخ الإسلام تشهد بأنه كان متحليا باليقين والمشاهدة التي بعثت فيه صفة من الافتقار والاضطرار والعبودية والإنابة وقد روى أنه إذا أشكلت عليه مسألة أو صعب لهم آية التجأ إلى جامع أو مكان موحش ووضع جبهته على التراب وردد قوله: "يا معلم ابراهيم فهمني"3 ويقول عنه: "لم أر مثله واستغاثته وكثرة توجهه"4 ويقول: "له أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية"5.

فقد كان يتذوق العبادة وينهمك فيها وزاهدا في الدنيا يزدريها، كما اتصف بالسخاء والإيثار وهي مما يتصف به رجال الله وأولياؤه والعاملون بالسنة النبوية بصفة عامة، وأسمى ما ترتقي إليه هذه السمات التواضع وإنكار الذات التي تحلى بها الشيخ حيث كثيرا ما كان يقول: "مالي شيء ولا مني شيء ولا في شيء"6 إلى جانب ذلك كان الفارس المجاهد ضد أصحاب البدع من الصوفية والغالين من أصحاب الفرق الكلامية، من جهة ومن جهة أخرى المجاهد الجريء الشجاع الذي قابل القائد التتاري قازان يوم أقبل بمجموعه ليغزو البلاد، فأنذره وتوعده حتى أقنعه بالانسحاب فانسحب، وحارب في جبهات القتال عندما عاود التتار الكرة على بلاد الشام.7

---

[3]- العقود الذرية، ص6.

[4]- الكواكب الذرية، ص145.

[5]- الذر الفاخر، ص18.

[6]- مدارج السالكين

[7]- أحمد النجار: ابن تيمية والتصوف، دار غار حراء، دمشق، ط1، 1426هـ/2006م. ص9-20.

و قد قال فيه وفي تلميذه ابن القيم الجوزية العلامة علي بن سلطان محمد القاري الهروي (1014هـ) "من طالع روح السائرين تبين له أنهما كانا من أكابر أهل السنة والجماعة، ومن أولياء هذه الأمة"8.

1.1-موقفه من التصوف:

نورد موقفه كما جاء على لسانه حين سُئِلَ رحمه الله عن (الصوفية) في كتاب التصوف، الذي اتسم بالعلم والخبرة والإنصاف مما يدل على أنه لم يكن ضِدّ التصوف بإطلاق، كما يَتصوّر أو يُصوّر بعض من يزعُم الانتساب إلى مدرستِه، بل كان من أهل المعرفة بالله، والحبّ له، ومن رجال التربية الإيمانيّة والسلوك الرَّبّاني، كما بدا ذلك في مجلدين من مجموع الفتاوى، وفي عدد من كتب ابن القيم، أعظمها: مدارج السالكين وشرح منازل السائرين إلى مقامات "إيّاكَ نعبُد وإيّاك نستعين".9

فقد استهدف شيخ الإسلام إبراز كنه التصوف كمدرسة تربوية هدفها الأساسي تهذيب النفس وتطهيرها من أخلاقها الذميمة، ولذلك عارض كل انحراف طرأ على التصوف. وانطلاقا من هذه القاعدة أظهر احتراما كبيرا لرواد الزهد والتصوف الملتزمين أمثال: الجنيد، الفضيل بن عياض،إبراهيم بن أدهم... وعموما اتخذ ابن تيمية موقفا يتميز بأمرين:

يرى أن شيوخ التصوف الأوائل قيدوا علومهم وتربيتهم بالكتاب والسنة، أما المتأخرون فقد ضل كثير منهم، وهذا ما تجده في قوله: (فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ حماد والشيخ أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين، فهم لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت. وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم).10

كما أنه لم يرفض التصوف جملة، بل انتقد ما طرأ عليه من خروج عن الأهداف الأولى ومناهج التربية والسلوك الأولى وفي ذلك قوله: (الصوفية بنوا أمرهم على الإرادة ولابد منها لكن يشترط أن تكون إرادة الله وحده).11، وفي آخر يقول (الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر. والتصوف كتمان المعاني وترك الدعاوى وأشباه ذلك، وهم يسيرون بالتصوف إلى معنى الصديق.) وتجلى موقفه المنصف في قوله:(والصواب انهم مجتهدون في طاعة الله) 12 ولم يعب عليهم الانتساب لشيخ بل يرى أن ذلك

8- المرقاة شرح المشكاة، المجلة 4، ص 427.

9- د. يوسف القرضاوي: موقع إسلام أون لاين على صفحة الفتاوى.

10- عبد الحليم أحمد بن تيمية: كتابه الفتاوى -علم السلوك- ج 10 ص 485 -516.

11- نفس المصدر ج19 ص172

12- نفس المصدر ج11 ص18

ضرورة علمية: (وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وتلقاه عنهم التابعون وبذلك يحصل اتباع السابقين الأولين بإحسان، فكما أن المرء له من يعلمه القرآن والنحو فكذلك له من يعلمه الدين الباطن والظاهر).13

ففي المجلد الحادي عشر من مجموع فتاويه يقول: { (التصوف) عندهم له حقائق وأحوال معروفة قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه، كقول بعضهم: (الصوفي) من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر. التصوف كتمان المعاني، وترك الدعاوي. وأشباه ذلك: وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى الصديق، وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون. كما قال اللّه تعالى: {فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: 69] ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفي؛ لكن هو في الحقيقة نوع من الصديقين، فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه، فكان الصديق من أهل هذه الطريق، كما يقال: صديقوا العلماء، وصديقوا الأمراء، فهو أخص من الصديق المطلق، ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين: إنهم صديقون فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة أنهم صديقون أيضًا، كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة اللّه ورسوله بحسب اجتهاده وقد يكونون من أجلِّ الصديقين بحسب زمانهم، فهم من أكمل صديقي زمانهم، والصديق في العصر الأول أكمل منهم، والصديقون درجات وأنواع؛ ولهذا يوجد لك منهم صنف من الأحوال والعبادات، حققه وأحكمه وغلب عليه، وإن كان غيره في غير ذلك الصنف أكمل منه وأفضل منه.

ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنزع فيه تنازع الناس في طريقهم؛ فطائفة ذمت (الصوفية والتصوف). وقالوا: إنهم مبتدعون، خارجون عن السنة، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام. وطائفة غلت فيهم، وادعوا أنهم أفضل الخلق، وأكملهم بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه الأمور ذميم. و(الصواب) أنهم مجتهدون في طاعة اللّه، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة اللّه، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاص لربه.

...وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة؛ ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم: كالحلاج مثلا؛ فإن أكثر مشائخ الطريق أنكروه، وأخرجوه عن الطريق. مثل: الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره. كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي؛ في (طبقات الصوفية) وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد.

13- نفس المصدر ج11 ص510

فهذا أصل التصوف. ثم أنه بعد ذلك تشعب وتنوع، وصارت الصوفية (ثلاثة أصناف): صوفية الحقائق وصوفية الأرزاق وصوفية الرسم.

فأما (صوفية الحقائق): فهم الذين وصفناهم.وأما (صوفية الأرزاق) فهم الذين وقفت عليهم الوقوف. كالخوانك فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق.فإن هذا عزيز وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك؛ ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط:

(**أحـــــدها**): العدالـــة الشـــرعية بحيـــث يـــؤدون الفـــرائض ويجتنبـــون المحـــارم. و(**الثاني**): التأدب بآداب أهل الطريق،وهي الآداب الشرعية في غالب الأوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها.

و(**الثالث**): أن لا يكون أحدهم متمسكًا بفضول الدنيا، فأما من كان جماعا للمال، أو كان غير متخلق بـــالأخلاق المحمـــودة، ولا يتـــأدب بـــالآداب الشـــرعية، أو كـــان فاســـقا فإنـــه لا يســـتحق ذلـــك. وأما صوفية الرسم: فهم المقتصرون على النسبة،فهمهم في اللباس والآداب الوضعية، ونحو ذلك فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع مَّا من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم.

وأولياء اللّه هم المؤمنون المتقون، سواء سمى أحدهم فقيرًا أو صوفيًا أو فقيهًا أو عالمًا أو تاجرًا أو جنديًا أو صانعًا أو أميرًا أو حاكمًا أو غير ذلك.

قال اللّه تعالى: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} [يونس: 62، 63].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يقول اللّه تعالى: من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته، ولابد له منه). وهذا الحديث قد بين فيه أولياء اللّه المقتصدين، أصحاب اليمين والمقربين السابقين.

فالصنف الأول: الذين تقربوا إلى اللّه بالفرائض. والصنف الثاني: الذي تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، وهـــم الـــذين لـــم يزالـــوا يتقربـــون إليـــه بالنوافـــل حتـــى أحـــبهم، كمـــا قـــال تعـــالى. وهذان الصنفان قد ذكرهم اللّه في غير موضع من كتابه كما قال: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} [فاطر: 32] وكما قال اللّه تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ} [المطففين: 22–28] قال ابن عباس:

يشـــــرب بهـــــا المقربـــــون صـــــرفا وتمـــــزج لأصـــــحاب اليمـــــين مزجًـــــا.

وقال تعالى: {وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا} [الإنسان: 17، 18] وقال تعالى: {فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} [الواقعة: 8-11] وقال تعالى: {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ} [الواقعة: 88-91].}14

2.1- العارف الصوفي العابد:

كما تجدر الإشارة إلى أن ابن تيمية في كلامه عن المصطلحات الصوفية كان أدق تعبيرا وأكثر تفصيلا من الصوفية الذين كتبوا في هذه الموضوعات. ففي حديثه عن المقامات والأحوال على سبيل المثال يقول: (أما بعد: فهذه كلمات مختصرات في أعمال القلوب . التي قد تسمى [المقامات والأحوال]. وهي من أصول الإيمان، وقواعد الدين، مثل / محبة اللّه ورسوله، والتوكل على اللّه، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك.)15 ثم يبين مراتب القلوب فيما يعرض لها من أحوال تختلف باختلاف منازلها.16

أما عبادته يقول عنها تلميذه ابن القيم مبينا تذوقه للعبادة والإنهماك فيها: (...ومن تجريبات السالكين التي جربوها فألفوها صحيحة: أن من أدمن يا حي ياقيوم لا إله إلا أنت أورثه ذلك حياة القلب والعقل وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه شديد اللهج بها جدا وقال لي يوما: لهذين الاسمين وهما الحي القيوم تأثير عظيم في حياة القلب وكان يشير إلى أنهما الاسم الأعظم وسمعته يقول: من واظب على أربعين مرة كل يوم بين سنة الفجر وصلاة الفجر ياحي ياقيوم لاإله إلا أنت برحمتك أستغيث حصلت له حياة القلب ولم يمت قلبه ومن علم عبوديات الأسماء الحسنى والدعاء بها وسر ارتباطها بالخلق والأمر وبمطالب العبد وحاجاته عرف ذلك وتحققه فإن كل مطلوب يسأل بالمناسب له فتأمل أدعية القرآن والأحاديث النبوية تجدها كذلك.)17

وبلغ المراتب العليا من العبودية بانكاره لذاته وتواضعه الشديد اذ هما من خصائص رجال الله الخاصة وهو المنصب الأعلى في الدين، يحدث عنه ابن القيم يصف تواضع العارفين (أنه يخفي أحواله عن الخلق جهده كخشوعه وذله وانكساره لئلا يراها الناس فيعجبه اطلاعهم عليها ورؤيتهم لها فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله وكم قد اقتطع في هذه المفازة من سالك والمعصوم من عصمه الله فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل وأنه لا شيء وأنه ممن لم يصح له بعد الإسلام حتى يدعي الشرف فيه ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من ذلك أمرا لم أشاهده من غيره وكان يقول كثيرا: ما لي شيء ولا مني شيء ولا في شيء وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت: أنا المكدى وابن المكدى وهكذا كان أبي وجدي وكان إذا أثنى عليه في وجهه

---

[14]- عبد الحليم أحمد بن تيمية: مجموعة الفتاوى، م11.

15- نفس المصدر، م10 ص5.

16- أحمد النجار: ابن تيمية والتصوف، دار غار حراء، دمشق، ط1، 1426هـ/2006م. ص69.

17. ابن القيم: كتاب مدارج السالكين، الجزء 1، ص 448.

يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلاما جيدا وبعث إلي في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه)18

وقال(وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: العارف لا يرى له على أحد حقا ولا يشهد له على غيره فضلا ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب وأما تنسم نسيم الفناء: فلما كان الفناء عنده غاية جعل هذه الدرجة كالنسيم)19، ويعلم المطلعون على احواله أنه في ذلك إنما يتحدث عن نفسه ويحكي حاله.

ومما تقدم يتبين أن شيخ الإسلام ابن تيمية سليم من الغلو الذي وقعت فيه الوهابية الذين فسروا ابن تيمية بتفسيرهم الخاص.

كما نجده – في مجلده العاشر من الفتاوى والمسمى كتاب علم السلوك– يسير على نهج الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه <فتوح الغيب> إن لم نقل أنه يشرح هذا الكتاب كما شرح تلميذه ابن القيم كتاب الصوفي الهروي، إذ كان يكن للشيخ عبد القادر الجيلاني احتراما كبيرا ويقول في حقه: قطب العارفين، شيخنا قدس الله سره، أعظم شيوخ زمانه... هذا إضافة إلى كثرة استشهاده بكلامه.

2- السنوسي وأثر الطرق السنوسية:

هو محمد علي السنوسي (1787–1859م) تربى في بيت علم ودين ولديه منذ حداثته ترعة العزلة والتأمل، كما عرف عن سلوكه التقوى وعمد في أثناء رحلاته إلى زيارة الزوايا والاجتماع بالإخوان ومعرفة مختلف الطرق20.

هذه التربية الروحية التي نعم بها السنوسي الكبير جعلته يخطط لدعوته في الإصلاح بما يكفل نجاحها إذ أدرك:

- قيمة الزوايا في الدعوات السابقة.
- قيمة البساطة واليسر في تقديم المعلومات الدينية للمريدين.
- رأى أن خير هذه الأمة في وقته يكمن في توحيد صفوفها مما جعله يتحالف مع الطرق الصوفية الموجودة في عصره ويدعوها إلى إصلاح نفسها ودعوتها على بث روح الجهاد بين أتباعها (السنوسية دين ودولة).

فسعى على إنشاء دولة إسلامية ذات منطلقات سلفية صوفية.

2. 1 انتشارها

---

18. نفس المرجع ، الجزء 1، ص524، أبو الحسن الندوي: ربانية لا رهبانية، دار الشروق، القاهرة،1980، ص81.

19- ابن القيم: كتاب مدارج السالكين، الجزء 1، ص524.

20- أكرم الخضري: الآثار الاجتماعية للحركة السنوسية، ص67. وانظر؟؟ حاضر العالم الاسلامي ص ج/1–108، حمد الشلبي: الموسوعة:217/6

امتدت الزوايا السنوسية في شمال إفريقيا حتى غدت على مدى ثمانين عاماً عاملاً كبيراً في تيار الحركة الإسلامية، وبات لها أتباع في كل قطر إسلامي، حتى كان لها (12) زاوية في الحجاز، ووصل عدد الزوايا في ليبيا والسودان وحولهما إلى (130) زاوية21. وتغلغلت في إقريقيا مبشرة بالإسلام بين الوثنيين حيث بلغ مجموع زواياها (300) زاوية.

وكانت الزاوية وحدة متكاملة مهمتها الأولى التربية وإعداد الدعاة، ثم إرسالهم للعالم الإسلامي ينشرون الدعوة الإسلامية، كما أن الزاوية معدة ومدربة للدفاع عن نفسها ضد العدو فكانت ومركزاً للحياة الروحية ومركزا للجهاد.

2.2 جهاد الاحتلال

كانت الزاوية كما أسلفنا مركزاً للجهاد لها تنظيم عسكري، إذ غالباً ما يختار مكانها في موقع حصين، عند ملتقى طرق، لتأمين الغايتين الحربية والتجارية، وكان أفرادها مسلحين، منظمين تنظيماً عسكرياً، فلما انسحبت الدولة العثمانية من ليبيا، دعا السنوسيون إلى تأليف حكومة وطنية،22 قادت المسلمين في ليبيا مدة عشرين سنة ضد الطليان الذين احتلوا ليبيا.

ومن ألمع قادة السنوسيين البطل (عمر المختار) يرحمه الله، الذي كان شيخاً على زاوية القصور في الجبل الأخضر، وتولى قيادة المجاهدين السنوسيين في الجبل الأخضر، وصار القائد العام للمجاهدين السنوسيين في ليبيا.23

وقف عمر المختار في وجه الفاشست بقيادة موسوليني الذي عمل جاهداً على انقراض الإسلام من ليبيا، وقرروا أن ليبيا أرض إيطالية، وقتلوا مئات الألوف من المسلمين، كما أجلوا ثمانين ألفاً من القبائل العربية عن الجبل الأخضر إلى صحراء (سرت) الجدباء فمات منهم خلق كثير جوعاً وعطشاً، ثم جندت الرجال من سن البلوغ إلى الخامسة والأربعين وساقتهم إلى الجيش، وجمعت الأحداث (4 . 12) وأرسلتهم قهراً إلى إيطاليا لتتصيرهم.24

وقد جاوز عمر المختار الخمسين من عمره، وبقي حتى جاوز السبعين يرحمه الله تعالى، يقود المعارك على صهوة جواده، من عام (1329هـ) حتى (1350 هـ/ عام 1931م) حيث وأسر، ثم أعدم يرحمه الله.25

3- حسن البنا (ولد 1906)

---

21. شكيب ارسلان ، حاضر العالم الاسلامي ، دار الفكر ، ط4 ، 1973م ، ج2، ص 140

22. شكيب ارسلان ، ص 297

3. شكيب ارسلان ، ج2 ص 148 ، وانظر خير الدين الزركلي ، الأعلام ، دار الملايين ، المجلد الخامس، ص66.

24. شكيب ارسلان، ص67

25. شوقي أبو خليل ، الاسلام وحركات التحرر العربية ، دار الفكر ، ط4 ، 1985 م ، دمشق ، ص 125.

نشأ الرجل في أحضان الطريقة (الحصافية الشاذلية) كمريد نشط أفاد منها أيما إفادة تركت أثرا في حياته وتجلت في منهجه لتربية الإخوان.

فقد أثرت الطريقة الحصافية في أبعاد شخصية الداعية حسن البنا وكان لهذا أثره وموقفه من التصوف في تربية الإخوان المسلمين.

لقد استفاد الأستاذ البَنّا من تجربته الصوفيّة، أخذ منها ما صفا، وترك ما كَدِرَ، وهو موقف كل الرجال الرَّبّانيين، كما رأينا عند شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم، فلم يكونا ضِدّ التصوف بإطلاق، كما يَتصوّر أويُصوّر بعض من يزعُم الانتساب إلى مدرستِهما، بل كانا من أهل المعرفة بالله، والحبّ له، ومن رجال التربية الإيمانيّة والسلوك الرَّبّاني، كما بدا ذلك في مجلدين من مجموع فتاوى ابن تيمية، وفي عدد من كتب ابن القيم، أعظمها: مدارج السالكين شرح منازل السائرين إلى مقامات "إيّاكَ نعبُد وإيّاك نستعين".

فقد طبق ذلك في تربية وتدريب الإخوان من الطلاب الأزهريين على الوعظ والإرشاد الديني، الذي يسميه علوم التربية والسلوك.

إذ كون فئة من الطلاب الأزهاريين وغيرهم للتدريب على الوعض والإرشاد الديني وذلك لدعوة الناس في كل مكان في المقاهي وأماكن العمل وغيرها، فنجحت هذه التجربة أيما نجاح حيث قال واصفا احساسه بهذا النجاح: { لقد نجحت التجربة مائة في المائة...و قد وجدت في هذا المعنى بعض العزاءعن الغيبة عن الجمعية الحصافية التي انحلت شكلا في المحمودية.[26]

إن الإخوان المسلمين هي دعوة صوفية لأنهم يعملون على أساس التزكية وطهارة النفس، ونقاء القلب، والمواظَبة على العمل، والإعراض عن الخلق، والحبِّ في الله، والارتباط على الخير. فهذا هو التصوّف، وهذه هي الصوفية الحقيقية عند حسن البنا.27

التصوف الحقّ عند حسن البنا يتمثّل أوّلَ ما يتمثّل في:

*<u>طهارة النفس ونقاء القلب</u>، فتزكية النفس هي أوّل سبيلِ الفَلاح {ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجورَها وتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} الشمس 7-10 والقلب هوالمُضغة التي إذا صَلُحت صَلُح الإنسان كلُّه، وإذا فسَدت فسَد الإنسان كلُّه، وسلامتُه أساس النجاة يوم القيامة {يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ ولاَ بَنونَ. إلاّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَليمٍ} الشعراء 88-89 . فلابد من المجاهَدة لنقاء هذا القلب وصفائه وطهارته من معاصي القلوب وأخطارِها.

*<u>والمواظَبة على العمل الصالح واجب على المسلم</u>، فإن أحبَّ الأعمال إلى الله أدوَمُها وإن قلَّ.

26- حسن البنا: مذكرات الدعوة والداعية، دار الشهاب،1966م.ص51

27- د. يوسف القرضاوي: موقع إسلام أون لاين على صفحة الفتاوى

*والإعراض عن الخلق بالإقبال على الخالق: من صفات الرَّبّانِيّين من أصحاب الرسالات {الذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالات اللهِ ويَخْشَوْنَهُ ولاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إلاّ اللهَ}الأحزاب39. وهم المَوصوفون في قوله تعالى {يَا أَيُّها الذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ أَذِلّةٍ عَلَى المُؤمِنِينَ أَعِزّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجاهِدونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ولاَ يَخافونَ لَوْمَةَ لائِمٍ} المائدة: 54. فهم لإعراضهم عن الخلق، لا يخافون لومةَ لائم منهم، ولا يخشَون أحدًا إلا الله سبحانه؛ لأنهم يُوقنون أن الخلق لا يملِكون لهم ضَرًّا ولا نفعًا، ولا حياة ولا موتًا، وأن الأرزاق التي يطمع الناس فيها، والأعمار التي يخاف الناس عليها، كلتاهما بيد الله وحدَه، لا يملِك أحد أن يَنقُصهم لقمةً من رزقهم، ولا أن يقدِّم من أجَلهم لحظة أويؤخِّر {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرونَ سَاعَةً ولاَ يَسْتَقْدِمونَ} الأعراف: 34.

*والحبُّ في الله: دِعامة من الدّعائم التي تقوم عليها الجماعة المؤمنة، فكما تربط بينها المفاهيم المشتركة، والفكرة الواحدة، تربط بين أبنائها العواطف المشتركة. وأعظمُ هذه العواطف وأخلدها وأعمقها هوالحبُّ في الله. فهوحبٌّ لا يقوم على عرَض من الدنيا، أومال أوجاهٍ أومُتعة، أونحو ذلك، بل يقوم على الإيمان بالله تعالى، والتقرُّب إليه، والرَّغبة في نصرة الإسلام، وأوثَق عُرَى الإيمان: الحبّ في الله، والبُغض في الله.

ومن أبرز ما يتميّز به الصوفيّة الصادِقون ثلاثة أشياء: الاستقامة، والمحبّة، وطاعة الشيخ، وهذه مقوّمات أساسيّة في التربية الإخوانيّة.

وما تركيز الإمام البنا على الجانب الخلقي الذي سماه (عصا التحويل) إلاّ مظهر من مظاهر نفاذ المنهج الروحي إلى منهج الإخوان المسلمين في التربية.[28]

28– د. يوسف القرضاوي: التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا،ص40 وانظر موقع إسلام أون لاين على صفحة الفتاوى.

الخاتمة:

فيما قدمناه إشارات دالة على أثر التربية الروحية في الحركات الإسلامية، وهو أثر اجتماعي ولا شك حيث أن أثار هذه الدعوات والحركات إنما تتطلب على المجتمع إيجابا وسلبا.

ثم أن ما أقدمته لا يمثل فخرا تجتره الطرق الصوفية اليوم، وهي أبعد ما تكون عن تمثله بقدر ما يمثل ردا على سلبية الكثيرين منهم، وفهمهم أن العبادة شيء والجهاد والحركة شيء آخر إذ ما قدمناه نموذج ومثال واقعي لما يجب أن يكون عليه العابد الزاهد المتعالي عن مغريات الحياة وفتن الدنيا، من حيث الإسهام والفاعلية في أحداث الحياة وتغيير المنكر فيها طلبا للإصلاح والعودة إلى الحياة الإسلامية كما رسمها الكتاب والسنة.

ولابد أن نعرف أن مؤسسات التصوف واقع لا يمكن الاستهانة بوجوده ولا يجدي التفرغ لمواجهته وإنما يتعين إصلاحه من الداخل وذلك بتصحيح أخطائه وتقويم مقولاته وآرائه المخالفة لمنطق الشريعة، وبوضعه أخيرا في صف القوى الحامية للإسلام مستفيدين من تلك التجارب السابقة.